كلية المستنصر بالله

جئت في اوائل هذا الرمضان الى كلية المستنصر بالله القائمة في النفة الشرقية من دجلة زائرا لها بعد مضي سبعة قرون على بنائها فالفيت بابها الشرقي الشمالي الكبير مسدودا فدخلتها من باب مفتوح اليها حديثا من الجانب الجنوبي المتصل بدجلة افضى بي الى ساحة وسيعة طولها سبعون مترا تقريبا في عرض اقل من نصف ذلك قليلا قد سقفت ادارة الجمرك التي امتلكتها بمقدار ثلثيها بخصر مرفوعة على عمد من خشب وقاية لما تحطه فيها ابتغاء رسومه من رزم الامتعة التجارية المجلوبة من اوربا والهند ومشيت في خط اعوج بين تلول وكثبان من الرزم والحمول وضجيج الحمالين يكاد يصم اذني فقلت في قلبي هذا بدل من اصوات الاساتذة الذين كانوا يلقون الدروس العالية في هذه الكلية على مسامع الوف من طلاب العلم. وطفت حول الساحة واسراب الدجاج السارحة هناك تتطاير فارة من امامي. وسرحت طرفي فيما يحيط بها من البناء الضخم ذي الطبقتين المشيد بالآجر وارتفاعه مع ما دفن منه الى اليوم في الارض خمسة عشر مترا تقريبا فوجدت كثيرا من الغرف مسدودا ابوابها وغالب الابنية واقعا في طرفي الساحة طولا فان هناك عددا من المنتديات والقاعات الفسيحة ذا طبقة واحدة يساوي ارتفاعها ذات الطبقتين كانت في قديم عمرانها مختصة بالدرس العام والبحث والمذاكرة خرب بعضها اليوم والم به البلى وفصل مدخل كثير منها عن الساحة الاصلية الكبرى اما بسد بابها القديم او ببنائه وحول القسم الاكبر الى ادارة الجمرك وبعضها من الطرف الغربي الى ادارة النهر السنية وانبار للفحم المختص بالوابورات السلطانية وبعضها الى ملاهي « قهوات » وبعضها الى مخازن للامتعة وحوانيت.

خرجت من الساحة ودخلت من الطرف الجنوبي الى ناد منها عظيم طوله خمسون مترا في عرض سبعة عشر تقريبا هو بعض ماذكرت ان مدخله فصل عن الساحة الاصلية فالفيته كذلك مستودعا للرزم التجارية. وفي الجانب الغربي الجنوبي وما يقابله من الجانب الشرقي الشمالي نظير ذلك الا انه اقل طولا وعرضا اما الذي في الجانب الشرقي الشمالي فهو اليوم ملك لبعض اغنياء اليهود وقد كتب له قضاة المسلمين حججا شرعية بذلك وسلمته ادارة « الطابو » اوراقا رسمية بملكيته فحول « الى مخازن » جميعه

اما القسم الفوقي من المدرسة فكثير من غرفه متداع بادي التشقق مائل الجوانب خاضع لحكم الدهر المبدل لعزها القديم بالهوان فنأى قلبي لمشاهدة ذلك وانثنى دموعي اسفا عليه. وسألت احد الحمالين ان يدلني على السلم الذي يفضي اليه فاجاب ان السلالم منهدمة

ولا طريق الى الصعود الا ما كان في اعلى الجانب الغربي الجنوبي فانه تحفظ فيه الحمول الخفيفة المجلوبة من الخارج . فانصرفت وقلبي يكاد ينفطر مثل جدرانه حزنًا على ما شاهدت من خراب هذه المدرسة التي كانت في سالف عهدها ملجأ كريمًا للعلم وكعبة يطوف بها طالبو الحكمة ودار الفخر للامة العربية .

وطفت بها من الخارج وقست بخطواتي طولها فوجدته ١٣٠ مترًا في عرض ستين تقريبًا هذا اذا لم يحسب الحمام الجسيم الذي هو في الجنوب الشرقي منها وقد الحق بالجرف حديثًا وكذلك الجامع الذي هو في الشمال الغربي منها وقد فصلته اليوم عنها سوق تفضي الى الجسر فاذا اضفنا ذلك والمظنون انهما كانا في القديم ملحقين بها زادت جسامة هذا البناء الفخيم .

اما النظامية فلا يرى لها اليوم اثر في بغداد والذي يشاهد من قاعدة المنارة غير مختص بها فيما اعتقد اذ لا يناسب ثخنه ما نسمعه عن ضخامة ذلك البناء بل هو فيما اظن بقية جامع صغير قد بني على انقاض تلك والدرس . ثم عدت الى داري فنظمت قصيدتي هذه :

وقفت على « المستنصرية » باكيًا ... ربوعًا بها للعلم ابنت خواليا
وقفت بها ابكي قديم حياتها ... وابكي بها الحسنى وابكي المعاليا
وقفت بها ابكي بشعري بناتها ... وانعي سجاياهم وانعي المساعيا
بكيت بها عهدًا مضى في عراصها ... كريمًا فليت العهد لم يك ماضيا
بكيت بها المدفون في حجراتها ... من العلم حتى بل دمعي ردائيا
اكفكف بالايدي بوادر ادمعي ... وبا بين الا ان يفضن جواريا
وطأطأت رأسي في ذراها تواضعًا ... وحييت بالتسليم منها المغانيا
وسرحت انظاري بها فوجدتها ... بناء تشييد المعارف عاليا
بناء فخيمًا عزّ للعلم مثله ... فقلت كذا فليبن من كان بانيا
والفيت قسمًا قد تداعى جداره ... وقسمًا على ما كان من قبل باقيا
تهب رياح الصيف في حجراتها ... فتلبسها ثوبًا من النقع هاميا
وتسعى على الجدران منها عناكب ... تجدّ لها فيما تداعى مبانيا
خالمت فيها بالرسوم دوارسًا ... وساءلت منهن الطلول بواليا
وقلت لدار البحث عظمت محفلاً ... وقلت لنادي الدرس حييت ناديا
أكلية العلم الذي كان روضه ... نضيرًا كما شاء التقدم نائيا
بأية ريح فيك هبت زعازع ... تصوح ذاك الروض فاجتث زاويا
لقد كنت فيما قد مضى دار حكمة ... بها الدرس يعلي الحقائق ماهيا

فكنت بأفق الشرق شمساً مضيئةً ... تشعّين نوراً للمعارف زاهيا
وكانت بلاد الغرب اذذاك في عمىً ... تقاسي من الجهل الكثيف الدياجيا
فاين رجالٌ فيك كانوا مشائخاً ... اليهم يحثّ الطالبون النواجيا
وكانوا بحاراً للعلوم عميقةً ... وكانوا جبالاً للحلوم رواسيا
وكانوا مصابيحَ الهدى ونجومَها ... بهم يهتدي من كان في الليل ساريا
يبيتون في نشر العلوم نهارهم ... ويحيون في حلّ العويص الليالي
نواحيك من طلاّبها اليوم اقفرت ... وكانوا الوفا يملأون النواحيا
فقالت وقاك الله لا تسألنني ... فمالك نفع في السؤال ولا ليا
فقلت اجيبيني كما كنت سابقاً ... تجيبين من قد جاء للعلم راجيا
فقالت ألمّت حادثاتٌ عظيمةٌ ... وجرّت على هذي البلاد دواهيا
هنالك استبد الدهر بالناس مبدلا ... فرفّع مخفوضاً وسفّل عاليا
هنالك اضمحلت دولةٌ عربيةٌ ... بها كانت الايام ترفع شانيا
وعوّضَ عنها دولةٌ ثم دولةٌ ... تسرّ بكون الجهل في الناس فاشيا
وذاك لان العلم للمرء مرشدٌ ... يعلمه عن حقه ان يحاميا
عرت نكباتُ الدهر بغداد بعدما ... بها رَدَحاً التقى السلامُ المراسيا
فاذهب ما للعلم من رونق الصبا ... تتابع احداث يشبن النواصيا
وادنى الذي قد نابها من نوائب ... خرابي ولولاها لما كان دانيا
فكابدتُ منهن الصروف نوازلاً ... وقاسيتُ منهن الخطوبَ عواديا
وابدى على عزي القديم اهانتي ... رجال تشخص العلم كانوا اعاديا
وأُهملتُ حتى انهدّ مني كما ترى ... مبان لنشر العلم عزّت مبانيا
وصرت على حكم الذين تحرزوا ... من العلم يا هذا الى ما ترانيا
فقد ذوي الغصن الذي كان ناضراً ... وقد عطل الجيد الذي كان حاليا
اضاءت قرون بي هي اليوم قد خلت ... فسل ان تشأ عني القرون الخواليا
وكنتُ ارجي ان تعود عمارتي ... اذا بعث الرحمن للعلم راعيا
فأملتُ عمراً ذلك العودَ باطلاً ... وعشتُ له دهراً أُمني الامانيا
أرجي بها اني الاقي شبيبتي ... فايقنت هذا اليوم ان لا تلاقيا
لقد نقض الايام بالعجز مرتي ... ومرّ الليالي يتبعن اللياليا
ورنق عدوان الزمان معيشتي ... فمن لي بان التي الزمان مصافيا

ويمزقني الباغون كل ممزق ... ولا احد عن فعله ذلك ناهيا
فقد صيروا للحم بعضي مخزناً ... وبعضي حوانيتاً وبعضي ملاهيا
وحطت بساحاتي ابتغاء رسومها ... بضائع للتجار تشقي الاهاليا
ولاقيت منهم كل خسف وجفوة ... فما ذا عسى من بعد ذا ان الاقيا
أغل فلا أسقى من الماء شربة ... ودجلة تجري بالخمير اماميا
فياليتني كنت اسحوت باجمي ... ولا كان في حالي كذا الذل باديا
كما انه اختي «النظامية» اسحت ... ولم يبق من آثارها الدهر باقيا
وكل جديد سوف يرجع للبلى ... اذا لم يكن منه له الله واقيا

بغداد

العالمون والعاملون

اطلعت في المقتبس على ترجمتكم للاستاذ جول سيمون الفرنساوي من فلاسفة هذا القرن فاعجبني تشبيهكم اياه ببعض رجال السياسة في الاسلام ممن جمعوا بين العلم والعمل او ممن ترقوا الى الوزارة من طريق القلم .. وقد ذكرتم من هذه الطبقة طائفة صالحة مثل ابن سينا والصاحب بن عباد والقاضي الفاضل ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم ولو استقصيتم لذكرتم في هذه الجملة ابن الاثير وابن الحميد بالمشرق وابن خلدون وابا بكر بن عمار وابن زمرك في المغرب وكثيراً من الوزراء واذا وصل الدور الى زماننا هذا فجودت باشا واحمد وفيق باشا بل كوجك سعيد باشا الذي تولى رئاسة الوزراء مراراً وهو من مخرجي صنعة القلم بل من مخرجي كتابة الجرائد السيارة . ولو شاء مترجم إفراد هذه الطبقة بالترجمة لملأ تراجمها المجلدات الكبار من القديم والحديث وهي طبقة تمتاز على غيرها بكونها جمعت بين الادارة والعلم وقرنت بين الحكم والحكم وان سياستها في الاغلب مبنية على قواعد العلم مستنيرة بضياء الحكمة ومن سعادة العمران ان يكون الحاكم حكيماً . ولا اريد بذلك تعطيل الفضيلة من لم يعرجوا الى المناصب العالية من طرق الاقلام فان لم فضائلهم وان ادارة الرجال مواهب والعلم علمان غريزي ومكتسب وقد يغني المكتسب عن الغريزي في هذه الامور لان الادارة ترجع الى العمل والتجربة اكثر مما ترجع الى العلم والحفظ كما انه ليس كل من درس وتعلم وركض طرف القلم صالحاً لان يتولى سياسة الملك وادارة الجمهور ويخوض غمرات المشاكل كما ذكرنا من كون الادارة موهبة فطرية تزداد بالتجربة وتزكو بالعمل وان كل امري ميسر لما خلق له .